



لابد أن المرء ستأخذه الدهشة وهو يطالع المزاعم والأباطيل التي يرددوها أعداء الإسلام والمتربيصون به، والتي يقصدون بها إبعاده عن تنظيم شؤون الحياة، وعن قيادة دفة الناس في المناحي المتعددة.

ومبعث الدهشة التي أعنيها أن تلك المزاعم والأباطيل تتراوح بين نقايضين، هما: الذم وال مدح؛ وكأنهم يقولون بلسان حالهم:  
من لم ينفع معه الذم، قد ينفع معه المدح!

فمرة يهاجمون الإسلام بضراوة، وينكرون عليه أي قدرة على إصلاح أحوال الناس، والرقي بها؛ بل يذهبون إلى أنه تأليف بشري من اختراع محمد الذي انشق عن الكنيسة، كما يردد ذلك غلاة المنصّرين والمستشرقين [1].

ومرة يتتوسطون في ذلك ويزعمون أنه رسالة سماوية لكنها رسالة روحية ينبغي أن تظل قاعدة بين جدران المساجد؛ ويسيرون في هذا الاتجاه مع ما زعمه أمثال الشيخ علي عبدالرازق في كتابه «الإسلام وأصول الحكم».. غافلين – أو: متغافلين! – عن تراجعه عن هذا الرأي بعد ذلك [2].

ومرة ثالثة يكيلون المدائح للإسلام – على غير عادتهم! – ويصفونه بكل أوصاف الكمال والسمو؛ غير أنهم يستدركون قائلين – كأنهم يغارون عليه – : إن الإسلام دين مقدس، لكن يضره إفحامه [3] في السياسة، وهي التي لا تعرف الأخلاق ولا المقدس ولا الثوابت؛ بل تقوم على المتغيرات وأساليب الخداع.. ولذلك نخشى عليه من التطبيق البشري وأخطائه!!

ونحن نلاحظ ابتداءً أن هؤلاء لا يفهمون مدح الإسلام في قليل أو كثير، ولا يمكن أن نتصور أنهم يغارون على الإسلام لدرجة

أنهم يريدون تنزيهه عن الخطأ البشري! لأنما أنزل القرآن لقلوته والتماس بركته فقط.. إنما يهمهم في المقام الأول إبعاده عن قيادة الحياة، حتى لو كان ذلك بكل المدائج له!!

### الخلق والأمر:

وللرد على هؤلاء الذين يريدون إبعاد الإسلام – لاسيما عن شؤون الحكم، وعن العلاقات الاجتماعية والاقتصادية – بزعم الحفاظ على قداسته مكانته، لا بد أن نؤكد جملة من الحقائق:

- أولاً: لقد خلق الله سبحانه وتعالى البشر ولم يتركهم سدى، ولم يرض أن يكلفهم مشقة البحث عن المنهج والهداية؛ بل أرسل إليهم الرسل وأنزل معهم الكتب، وشرع لهم العقائد والتشريعات والآداب؛ ليكفل لهم صلاح الدنيا والآخرة.

إذا كان بعض الفلاسفة يزعمون أن الله خلق الكون ثم تركه يمضي إلى حال سبيله حرّ التصرف في أحواله وشؤونه؛ كمن يصنع «ساعة» ثم يدعها تعمل دون تدخل منه.. فإن القرآن الكريم قاطع الدلالة في نفي ذلك حيث يقول، وهو يُعرف الناس بالله سبحانه: {إِنَّ رَبَّكُمُ اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ اسْتَوَى عَلَى الْعَرْشِ يُغْشِي اللَّيْلَ النَّهَارَ يَطْلُبُهُ حَتَّىٰ وَالشَّمْسُ وَالْقَمَرُ وَالنُّجُومُ مُسْخَرَاتٍ بِأَمْرِهِ أَلَا لَهُ الْخَلْقُ وَالْأَمْرُ تَبَارَكَ اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ} [الأعراف: 54].

قال الإمام البغوي في تفسيره: «أي: خلق هذه الأشياء مسخرات، أي: مذلّلات، {أَلَا لَهُ الْخَلْقُ وَالْأَمْرُ} له الخلق لأنّه خلقهم، وله الأمر يأمر في خلقه بما يشاء». وقال ابن كثير: «الجميع تحت قهره وتسخيره ومشيئته، ولهذا قال منبهًا: {أَلَا لَهُ الْخَلْقُ وَالْأَمْرُ} أي: له الملك والتصرف».[4].

وقد أوضح صاحب «الظلال» حكمة ورود هذا التأكيد {أَلَا لَهُ الْخَلْقُ وَالْأَمْرُ} ضمن سياق الحديث عن خلق السماوات والأرض، وتعاقب الليل والنهار، وتسخير الشمس والقمر والنجوم؛ فقال: «إن الله الذي خلق هذا الكون المشهود في ضخامته.. والذي استعلى على هذا الكون يديره بأمره ويصرّفه بقدرته؛ يغشى الليل النهار يطلبه حتّى في هذه الدورة الدائبة: دورة الليل يطلب النهار في هذا الفلك الدوار.. والذي جعل الشمس والقمر والنجوم مسخرات بأمره.. إن الله الخالق المهيمن المصرف المدبر هو (ربكم).. هو الذي يستحق أن يكون ربّا لكم، يربّكم بمنهجه، ويجمعكم بنظامه، ويسرع لكم بإذنه، ويقضى بينكم بحكمه، إنه هو صاحب الخلق والأمر؛ وكما أنه لا خالق معه، فكذلك لا أمر معه»[5].

إذن ذـ«الخلق» وـ«الأمر» يشكلان معاً ثنائية متراقبة متلازمة، لا ينفك طرفاها عن بعضهما البعض.

كما يؤكد القرآن أن الغاية من إنزلاله هي «الاتباع» وـ«التحكيم»، وليس التلاوة والتماس البركة فحسب كما يزعم البعض؛ قال تعالى: {ثُمَّ جَعَلْنَاكَ عَلَى شَرِيعَةٍ مِّنَ الْأَمْرِ فَاتَّبِعْهَا وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَ الَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ} [الجاثية: 18]، ويقول أيضًا: {إِنَّا أَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ لِتَحْكُمَ بَيْنَ النَّاسِ بِمَا أَرَاكَ اللَّهُ وَلَا تَكُنْ لِلْخَائِنِينَ حَصِيمًا} [النساء: 105].

### الإسلام والفكر الإسلامي:

• ثانياً: ينبغي أن يكون واضحاً ونحن نؤكد ضرورة تحكيم الإسلام في دنيا الناس، في مواجهة من يزعمون حبهم له وخشيتهم عليه من الخطأ البشري.. أن ثمت فرقاً كبيراً ورئيساً بين «الإسلام» من جهة، وـ«الفكر الإسلامي» من جهة أخرى.

فالإسلام هو الدين الذي أنزله الله سبحانه لهداية الناس، وهو حجة الله على العالمين، تكفل سبحانه بحفظ أصولها وثوابتها من التحريف والتبدل؛ لأنه لا نبي بعد محمد صلى الله عليه وسلم، خاتم الأنبياء والرسل؛ ولا رسالة بعد رسالته التامة

وَفَهُمُ الْإِسْلَامُ فَهُمَا صَحِيحًا لَا يَتَأْتِي إِلَّا بِالرَّجُوعِ إِلَى مَصْدِرِهِ الْمَحْفُظِينَ، وَيَنْبُوْعِهِ الصَّافَّيْنَ: الْقُرْآنُ الْكَرِيمُ وَالسَّنَةُ النَّبُوَّيَّةُ (عَلَى تَفْصِيلِهِ أَمْرُ السَّنَةِ، كَمَا هُوَ مَعْرُوفٌ فِي «عِلْمِ الْحَدِيثِ»).

أَمَّا الْفَكَرُ الْإِسْلَامِيُّ فَهُوَ الْفَهْمُ وَالْتَّطْبِيقُ الْبَشَرِيَّانُ لِلْإِسْلَامِ، وَهُمَا – أَيُّ: الْفَهْمُ وَالْتَّطْبِيقُ الْبَشَرِيَّانُ – يَجُوزُ عَلَيْهِمَا الصَّوَابُ وَالْخَطَأُ؛ لَكِنْ لَا يُنْسَبُ خَطْؤَهُمَا أَبْدًا إِلَى الْإِسْلَامِ، إِنَّمَا يَظْلِمُ هَذَا الْفَهْمُ أَوَ التَّطْبِيقُ صَوَابًا بَقْدَرِ مَا يَتَطَابِقُ أَوْ يَقْرَبُ مِنَ الْإِسْلَامِ؛ وَحِينَئِذٍ تَظْلِمُ إِمْكَانِيَّةً – بَلْ ضَرُورَةً – الْإِسْتِفَادَةُ مِنْ قَائِمَةِ وَمَطْلُوبَةِ.

فَلِيسُ فِي الْبَشَرِ حَجَةٌ عَلَى الْإِسْلَامِ إِلَّا الرَّسُولُ الْمَعْصُومُ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فَهُوَ مَحْلُ الْقَدُوْةِ وَالْإِتَّبَاعِ، قَالَ تَعَالَى: {قُلْ إِنْ كُنْتُمْ تُحِبُّونَ اللَّهَ فَاتَّبِعُوهُ نِعِمْ يُحِبُّكُمُ اللَّهُ وَيَغْفِرُ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَاللَّهُ عَلَوْرُ رَحِيمٌ} 31 فُلْ أَطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ إِنْ تَوَلُّوْا فَإِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْكَافِرِينَ} [آل عمران: 31-32]، وَلَذِكْ جَاءَ عَنِ الْإِمَامِ مَالِكٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَوْلُهُ: «كُلُّ إِنْسَانٍ يُؤْخَذُ مِنْ كَلَامِهِ وَيُرَدُّ، إِلَّا صَاحِبُ هَذَا الْقَبْرِ»، وَأَشَارَ إِلَى قَبْرِ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ.

وَيَوْجُزُ الشَّيْخُ مُحَمَّدُ الْغَزَالِيُّ – رَحْمَهُ اللَّهُ – الْفَرْقُ بَيْنَ الْإِسْلَامِ وَالْفَكَرِ الْإِسْلَامِيِّ فَيَقُولُ: «الْفَكَرُ الْإِسْلَامِيُّ مُسْتَحْدَثٌ، وَيَخْضُعُ لِقَانِنَ التَّطْوِيرِ، وَلِعِوَاضِ الْأَضْمَحِلَّ؛ أَمَّا الْإِسْلَامُ فَإِنَّهُ كِتَابٌ {لَا يَأْتِيهِ الْبَاطِلُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِ تَنْزِيلٌ مِنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ} [فَصِّلَتْ: 42]. الْفَكَرُ الْإِسْلَامِيُّ غَيْرُ مَعْصُومٍ مِنَ الْخَطَأِ وَالْوَهْنِ، وَالْإِسْلَامُ مَعْصُومٌ عَنِ ذَلِكَ كُلِّهِ. وَكِتَابُ الْإِسْلَامِ – لِأَنَّهُ مَعْصُومٌ مِنَ الزَّيْغِ وَالْأَسْعَفِ – لِهِ قَدَاسَةُ، وَلِهِ حَقُّ الطَّاعَةِ الْمُطْلَقَةِ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ بِهِ، وَالْفَكَرُ الْإِسْلَامِيُّ لَا تَجُبُ الطَّاعَةُ لَهُ إِلَّا بَقْدَرِ مَا فِيهِ مِنْ تَمْثِيلٍ لِكِتَابِ اللَّهِ وَرِسَالَةِ السَّمَاءِ؛ ذَلِكَ أَنَّهُ – أَصَالَةً – يَخْضُعُ لِلنَّقْدِ وَالْمُخَالَفَةِ. الْفَرْقُ بَيْنَ الْإِسْلَامِ وَالْفَكَرِ الْإِسْلَامِيِّ هُوَ الْفَرْقُ بَيْنَ مَا لِلَّهِ وَمَا لِإِنْسَانٍ» [6].

### أَنْزَلَ لِيوجَهِ الْحَيَاةِ:

• ثالِثًا: إِنَّا إِذَا سَلَّمَنَا جَدَلًا بِأَنَّ طَرِيقَ الْمَحَافَظَةِ عَلَى قَدَاسَةِ الْإِسْلَامِ وَصَوْنِهِ مَا قَدْ يَحْدُثُ مِنْ أَخْطَاءِ عِنْدِ تَطْبِيقِهِ فِي الْوَاقِعِ، هُوَ أَنْ نَكْتَفِي بِتَلاوةِ الْقُرْآنِ الْكَرِيمِ ثُمَّ نَضْعِهُ عَلَى الْأَرْفَفِ، نَلْتَمِسُ بِرَحْكَتِهِ بَيْنَ الْحَيْنِ وَالْآخِرِ.. فَمَا فَائِدَةُ إِنْزَالِهِ أَصَالَةً وَهُوَ الَّذِي أَنْزَلَ لِيوجَهِ حَرْكَةِ الْحَيَاةِ كَمَا أَشْرَنَا؟! وَكَيْفَ يَتَبَعِدُ النَّاسُ وَيَتَقْرِبُونَ إِلَى اللَّهِ إِذَا نَحَّوُ مِنْهُجَهُ جَانِبًا، وَحَكَّمُوا فِيمَا بَيْنَهُمْ قَوْانِينَ وَضَعِيفَةٍ لَا يَهْمَهُمَا أَنْ تَتَفَقَّ أَوْ تَخْتَلِفَ مَعْ مِنْهُجِ اللَّهِ، بَلْ قَدْ تَسْعَى جَاهِدَةً لِلصَّدَامِ مَعَهُ؟!

وَلَذِكْ فَإِنِّي أَتَعْجَبُ مَعَ دَمَّشِي عَمَارَةِ أَصْحَابِهِمْ هَذِهِ الْزَّعْمِ، وَأَرَدَدَ مَعَهُ قَوْلَهُ: «إِنْ دَعَوْتُكُمْ إِلَى مَرْجِعِيَّةِ الْقَانُونِ الْوَضِيعِ بَدَلًا مِنْ مَرْجِعِيَّةِ الشَّرِيعَةِ الْإِلَهِيَّةِ، بَحْجَةِ صِيَانَةِ الدِّينِ الْإِلَهِيِّ عَنْ أَخْطَاءِ التَّطْبِيقِ الْبَشَرِيِّ، لَا بَدَّ وَأَنْ يَقُولُوكُمْ (مَنْطَقَهُمْ) إِلَى الدِّعَوَةِ لِلتَّدِينِ بِدِيَانَاتِ وَضَعِيفَةٍ بَدَلًا مِنِ التَّدِينِ بِالدِّينِ الْإِلَهِيِّ؛ لِأَنَّ الْخَطَأَ فِي حَقِّ بُونَذَا أَوْ زَرَادِشْتَ أَوْ كَنْفَشِيوسَ، أَخْفَ مِنَ الْخَطَأِ فِي حَقِّ اللَّهِ سَبَّحَنَهُ وَتَعَالَى!» [7].

\* \* \*

وَمِنْ هَذَا نَسْتَطِيعُ أَنْ نَخْلُصَ إِلَى أَنَّا إِذَا أَدْرَكَنَا أَنَّ اللَّهَ سَبَّحَنَهُ خَلْقَ الْبَشَرِ؛ لِيَخْتَبِرُهُمْ أَيْمَنُهُمْ يَتَّبِعُ مِنْهُجَهُ، وَأَيْمَنُهُمْ يَسْوَقُهُ هَوَاهُ وَشَيْطَانَهُ؛ وَأَنَّ الْإِسْلَامَ أَرِيدُ بِهِ تَسْبِيرَ حَيَاةِ النَّاسِ لَمَا فِيهِ صَلَاحَهُمْ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ؛ وَأَنَّ هَذَا الْإِسْلَامُ (الْمَنْهَجُ الرِّبَانِيُّ) هُوَ الَّذِي تُحَاكِمُ إِلَيْهِ أَفْعَالُ الْبَشَرِ وَلَا يُحاكِمُهُمْ هُوَ إِلَيْهَا (أَيْ نَعْرِفُ الرَّجُلَ بِالْحَقِّ وَلَا نَعْرِفُ الْحَقَّ بِالرَّجُلِ).. إِذَا أَدْرَكَنَا ذَلِكَ حَقًّا، فَلَا مَجَالٌ مُطْلَقًا لِلْخَوْفِ عَلَى الْإِسْلَامِ مِنْ أَخْطَاءِ بَعْضِ أَنْبَاعِهِ؛ سَوَاءَ كَانَتْ هَذِهِ الْأَخْطَاءُ عَنْ عَدْمِ أَوْ عَنْ سَهْوٍ.. إِلَّا أَنْ يَكُونَ الْمَرَادُ مِنْ هَذَا الْزَّعْمِ – فِي الْحَقِيقَةِ – إِبعَادُ الْإِسْلَامِ عَنْ تَوْجِيهِ الْحَيَاةِ، وَ«تَحْنِيَّتَهُ» فِي الْكِتَابِ وَالْمَتَاحَفِ؛ وَلَيْسَ الْخَوْفُ عَلَيْهِ

- [1] راجع: «حقائق إسلامية في مواجهة التشكيك»، د. محمود حمدي زقزوق، الطبعة الثالثة لوزارة الأوقاف المصرية، 2001م.
- [2] راجع بالتفصيل رأي الشيخ علي عبدالرازق ورجوعه عنه في «كتاب الإسلام وأصول الحكم في الميزان»، د. محمد رجب البيومي، هدية مجلة «الأزهر»، صفر 1414هـ.
- [3] نلاحظ أنهم يستخدمون كلمة "إفهام" هنا، وكان الأصل المسلم به هو: الإبعاد!
- [4] انظر: «المكتبة الإسلامية» على موقع «إسلام ويب».
- [5] «في ظلال القرآن»، سيد قطب، ج 3، ص: 1297، دار الشروق، ط 12، 1406هـ.
- [6] «ليس من الإسلام»، ص 114، ط 6، 2000م.
- [7] «الإسلام والسياسة»، ص 148، 149، دار السلام، ط 1، 2005م.

مجلة البيان العدد 330

المصادر: